﴿ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

( سورة المائدة )

فقال بن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية فى موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أنى جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطانى أحد شيئاً ، وسمعه على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه وكان يصلى ـ فمد على يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتما ، وأشار إلى على بن أبى طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

( سورة المائدة )

وأياً كانت المناسبة التى نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق أوضح فى الآية السابقة : إن الله هو الولى ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : ( يحبهم ويحبونه ) .

وحين يكون الله فى معونتك فهو يعطيك من قدرته غير المحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الحاسم فى هذا الأمر هو قول الحق :

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

والحق فى الآية التى نحن بصددها جاء بالمقابل لما جاء فى الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : ( إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ) .

وفى هذه الآية يأتى بالمقابل فيقول سبحانه :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

( سورة المائدة )

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف ينتصر العبد لله . ولم يقل سبحانه فى وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة فى معنى عام فقال : « فإن حزب الله هم الغالبون » .

وكلمة « حزب » معناها : جماعة التف بعضهم مع بعض على منهج يرون فيه الخير. ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتمعوا عليه ، إذن فحزب الله فى أى وضع وفى أى تكوين ولأيةِ غايةٍ هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردي نجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة »[1] .

فما معنى حَزَبه هنا ؟ معناه أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزبُه أمر يتعلق بدنياه وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين ؛ لذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة . إنّه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حَزَبَهُ ، ولأن الله لا يغلبه شيء ؛ لذلك فسبحانه يرفع الهمَّ عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن حَزَبَنا هذا الأمر فى نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده ومازال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، وييسر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هى يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأخذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

( سورة النمل )

وسبحانه الذى يجيب المضطر وهو الذى يكشف السوء وهو الذى جعل البشر خلفاء فى الأرض ، وسبحانه لا شريك له فى ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

( سورة النمل )

وإذا قال قائل : ولكنى أدعو الله ولا يستجيب لى . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستنفد الأسباب . وعليك أن تستنفد الأسباب كلها . فإن استنفدت الأسباب فالحق يجيبك ما دمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يَغْلِب إنما يعطينا قضية مكونة من « إن المؤكِّدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهى تختلف عن القضية الكونية التى تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

وسبحانه يعلم ما يكون فى كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة نجد قوماً تجمعوا وفى صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يَغْلِبُون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب ؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فأنت تخدع نفسك بأنها جنديّة لله وهى ليست كذلك . ولنا المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته فى موقعة أُحُد وأمر الرُّماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرّماة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »[1] .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جُنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سُنَّة الله الإيمانية فى كونه ألا تقع ، ولو ظلوا مُنتصرين على الرغم مَن أنهم خالفوا الرسول لهان أمر رسول الله فى نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يُوقِع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يَعضوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنّواجذ . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

(١) رواه ابن إسحق فى السيرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والهُزُوُ هو السُّخرية والتَّنكيت . وهُزْء أهل الكتاب من أهل الحق لون من الانفعال العكسى . فساعة يرى بعض من أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّى ،لا يُحملق فى النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ؛ لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بلونٍ من السخرية ، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولنفرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والْتزم واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أخت فيطلب زميله المنحرف يد هذه الأخت ، ويأتى له الصاحب الذى لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذى لم ينحرف ؛ لأنه لن يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستأمنك على أختى ؟ أنا أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن القيم هى القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتقى بأناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحتفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات الضارة التى تنتشر ، مثل شمّ الهيروين أو تدخين المخدرات نجد أن الذى وقع فى مصيدة هذه المصائب يريد أن يجر غيره إلى مثل هذا المستنقع . ونجد فى القرآن ما يقوله لنا خالق الطباع والعليم بها :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

( سورة المطففين )

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون ولياً .

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

( سورة المطففين )

ويرجع الواحد منهم إلى أهله فيحكي بسرور : لقد قابلنا إنساناً غارقاً في الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

( سورة المطففين )

بل قد نجد أن أهل الإضلال يتهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فماذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

( سورة المطففين )

وكأن الحق يسأل المؤمنين : ألم آخذ لكم حقكم ؟ إذن فالذين يتخذون الدين هُزُواً ولعباً . وادعوا الإيمان نفاقاً . إياكم أن تأمنوا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

( من الآية ٥١ سورة المائدة )

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء ، وعلى المؤمنين اليقظة

والحذر ؛ لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح فى الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين .وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المؤمن المنهج ، ويحاول أن يستبقى للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ فى حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وتثبت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفى ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بهذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

«وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً» ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل ـ كما نعلم ـ هو الأداة التى تؤدى مهمة الاختيار ما بين البدائل ؛ أى أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الرابح .

إن الهوى هو الذى يدفع العقل إلى أن يختار أمراً مخالفاً . فيجنح بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأى الهوى . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقال البعير ، فصاحب الجمل يقيد ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمح . ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الهوى ، ولينقذ الإنسان من الضلال لا أن يبرر

الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تنادون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و« قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و« نَقَم يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره فى سلوكى أن أكون مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألا يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص فى العمل وألا يكذب فى ميعاد ، فأى شىء فى هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس فى فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب فى فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبى عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب فى فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة فى الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يُكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يُكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم . ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ، لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تُكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أننى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ، لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء .
وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة ـ صفقة كراهيتكم لنا ـ خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم من أنكم لا تملكون أن تجاوزونا بشيء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهي العقوبة التي يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهي الأكثر ضرراً . وهذا لون ـ كما قلنا ـ من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التي يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هي الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال .
ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله في المسألة ، وبذلك يرى مَن الذى على هدى ومَن الذى على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم في أصل الدعوى ، ولكن سلم